الفكر اللّساني العربي الحديث بين التّجديد والتّقليد

أ. عبد الرحيم البار

جامعة محمّد خيضر، بسكرة-الجزائر

-ملخّص باللّغة العربيّة: يظل الفكر اللّساني الغربي الوافد إلى اللّسانيات العربيّة العامل الرئيس المؤجج للوضع اللّغوي العربي. فبعدما بادر أصحابه إلى تلقّيه وتلقينه وفق ما تمليه بواعثه الفكريّة والنّظرية؛ كان هذا عاملا محرّكا لحركة النّخوة اللّغوية العربية بحجة إحياء التراث وحماية لغة الضاد. فظهرت على إثر ذلك مدارس لغوية عربية حديثة متبنيّة أطر نظرية وتطبيقية تنبع من صميم اعتقادها الفكري الذي أسّست عليه، وتراءت مناهجها في دراسة اللّغة وعمّ الخلاف والتصادم. وبات الوضع اللّغوي العربي الحديث تتجاذبه تيارات الحداثة والأصالة أو ما يصطلح عليه بالتجديد والتقليد. وكان لزاما على الباحث العربي أن يقف بمعية على ما يحدث في هذا الحيّز من العلوم- الإنسانيّة الذي خيّم على السّاحة اللّغوية العربيّة؛ لافتكاك ما هو مناسب وما هو لازم لنظام اللّغة العربية اللّساني في واقع عالمي تسوده روح التطوّر السيّار والذي استطاعت اللّغات الأوروبيّة أن ترتوي منه، فلا مانع من أن يكون للغة العربيّة نصيب من هذا الحراك المعرفي وهذا ما نشير إليه.

- Abstract in English

Thought lingual western newcomer to Arabic linguistics remains the main factor Activated Arab linguistic situation. After having initiated his companions to teach him a receipt and according to the dictates of the intellectual and theoretical motives this factor was the engine of linguistic pride movement under the pretext of reviving the Arab heritage and the protection of daad language. Following that appeared on the Arab schools to foster modern linguistic theory and practical stems from the belief that the core of the intellectual frameworks established it, and Perceived curriculum in the study of language and uncle contention and collision.

عرفتاللّغات الغربيّة حركة تطوّرية هامة في مختلف ميادينها؛ بدءا من النّظريّات والمناهج انتهاء إلى تأسيس المدارس اللّسانيّة. فعزّز ذلك من ظهور التيارات الفكريّة اللّسانيّة المتخصّصة في دراسة علوم اللّسان مادة ومنهجا. ولم تكن السّاحة اللّغويّة العربيّة بمنأى عن هذا الحراك المثيرالذي غيّر التوجّه الفكريّ العلميّ في حقل اللّسانيّات خاصة وعلوم اللّغة عامة. وبالطبع استجابة اللّغة العربيّة إلى هذا النّداء العلمي المثير؛ واعتبر ذلك بمثابة ثورة حقيقية في حقل اللّسانيّات العربيّة. فانقسم المشهد اللّغوي العربي بين مؤيّد ومعارض، ومستبشر ومستنفر. فهيّج ذلك السّاحة اللّغويّة العربيّة وجعلها معتركا خصبا للمناهج والأفكار وأخذ التّفكير اللّساني العربيّ المعاصر منحىخطرا ساهم في تأجيج الحركة الفكريّة في ميادين اللّغة العربيّة بحسب التوّجهات النّظريّة والمَنْهَجيّة. وبعد هذه الحركة الفكريّة الفعّالة في عالم اللّغويات الغربيّة التي تجلّت في مناهج ونظريّات لسانيّة رافقت القرنين التاسع عشر والقرن العشرين، واتساع هذه النزعة العلميّة من منشئها غير مستثنية في شيوعها البلاد العربيّة، فقد لقيت هذه النّهضة ذات الأصول الأوروبيّة الواردة إلى عالمنا استجابة هائلة؛ فظهرت على إثرها الأعمال والانجازات التي لا تكاد تترك شيئا ممّا وجد في الفكر اللّساني الغربي إلا وخاضت فيه مستندة إلى فكرة مفادها أن التّراث اللّغوي العربي بحاجة ماسة إلى مناهج جديدة تساعده على التطوّر ومسايرة الرّكب اللّغوي العالمي المسارع في التقدّم العصريوالنّهوض العلمي، فكان لزاما لهذه النّقلة النّوعية في عالمنا اللّغوي أن تلقى ترحيبا واسعا كما كان عليها أن تتقبّل معارضة وانتقادا واسعا. بل قد تعالت أصوات تدعو إلى الكفّ عن هذا التوغّل الخطير للمناهج الغربيّة معتبرين ذلك خرقا للخصوصيّة العربيّة ومساسا بكيانها الوجودي.

ولا شكّ أنّ هذا الفراق طفا على واجهة الدّراسات اللّغويّة العربيّة؛ حيث نجم عن ذلك حركات لغويّة متعدّدة فظهرت تيارات لغوية أدبية تنادي بالقوميّة وأخرى

تنادي بإحياء التراث وتمجيده، وفريق أخر تهافت إلى مناهج الغرب مادة وشكلا. فباتت اللّغة العربيّة بين محكّين: فريق يلزمها التجديد للتراث والتمسّك بكنوز اللّغة ودعا إلى قولبة التراث وبعثه في منوال علميّ حديث، وفريق أخر تغنىّ باستعمال النّظريّات الغربيّة دون تمحيص ولا تخصيص.

إذن فهذا صراع لا محالة هو قائم بين اتجاه التجديد واتجاه التقليد، ولا يخفى علينا أنّ هناك اتجاه دعا إلى التدبر والتأني في إصدار الأحكام؛ فهؤلاء آمنوا بفكرة المزاوجة أيّ بالغوص في التراث واسترداد المناسب مع المحافظة على الثوابت والقيم واستخلاص المفيد من بعثات الغرب الفكريّة والمَنْهَجية؛ وهذا قريب إلى الصواب من حيث المبدأ لأنّ "الأصالة تعني النّمو والتطوّر والاستمرار والتكيف بعيدة عن كل جمود وركود"[1]. و'الحداثة' نمط عصري وافدٌ قد يحمل في طيّاته بوادر 'الإفادة النافعة'. وبما أنّنا اخترنا الحديث عن الفكر اللّسانيّ العربيّ بين التجديد والتقليد سنقدّم هنا آراء ورؤى لعدد من المفكرين واللّغويين وننقل تعليقات حول قضايا اللّغة العربيّة في ظلّ واقع تسوده مطايا التقدّم والازدهار؛ وهذا سيبيّن حقيقة التجديد والتقليد في اللّغة العربيّة.

التجديد في اللّغة العربيّة مشتق من الفعل 'تجدّد' وهو بمعنى البعث والإحياء ويقال "جدّد الشيء 'أي' صيّره جديدا"[2] و'أعاده على شاكلته الأولى التي وجد عليها' في صورته البدائيّة التي انطلق منها ولذلك سُمي كل شيء لم تأت عليه الأيام (متغيّرات الزّمن) جديدا، ولفظ الجديد يعني البعث.

ومن هنا نخلص إلى أنّ التّجديد في معناه اللّغوي يقيم في الذهن صورة تتلاقى فيها ثلاثة معانٍ مترادفة على الرّكب المرتب وفق الآتي:

-أولها: أنّ الشيء المجدد له أثر سابق بمعنى أنّ النّاس يدركونه إمّا عن طريق المشاهدة السابقة أو الأخبار اللاّحقة.

-ثانيها: أنّ الشيء المجدّد اختفت صورته الحقيقيّة التي كان عليها، فهو يرمي إلى العودة والبعث والإحياء.

-ثالثها: بعد الإحياء والتجديد يتمّ تأهيله للاستعمال على أنه نمط حضاري حديث يتصل بصورته القديمة ويحافظ على صورته الحديثة وهذا ما يسمى التجديد.

التقليد: يحمل صورا تفسيريّة عدّة وأصحابه لا يتبنونه بمفهومه الحقيقي؛ كونهم ينظرون إلى أعمالهم بأنّها تنمو من سندال التجاوب مع الغير ومحاكاة العلوم والمستجدات المعرفية لا من وَهْم التبعية وخلاصته:

-أولا: تأثّر المتتبع أو الدّارس بما يجده في غيره واعتقاده وجهَ الكمال فيما تأثّر به.

-ثانيا: الرّغبة في الاستفادة من خلال محاورة الحضارات الفكريّة الغربيّة المختلفة.

-ثالثا: إهمال التراث والموروث والذوبان في الغير فكرا ومنهجا وعلما وهؤلاء لم يلقوا تجاوبا كبيرا في عالم اللّغة والفكر وإرهاصاتهم العمليّة في عمومها ضئيلة.

بعد الوقوف على مفاهيم التّجديد والتّقليد ننتقل هنا إلى الاطلاع على إرهاصات جدليّة التّراث والحداثة وفق نماذج وصور توضيحيّة:

نبتدئ بقول الأستاذ عبد السّلام المسدّي في كتابه الأسلوبيّة والأسلوب: "الحداثة والمعاصرة تؤمان يتجاذبان الفكر العلمانيّ الحديث حتى لكأنّ عصر البدائل عصرنا، لأنّ المنحى التطوّري قد أعدمته حضارة السالفين، وإنّما تفاوت ما بين تسارع الحركة الماضية وتسارع المفارقات الحركيّة -في يومنا هذا-. ولئن تمثّل الفكر الغربي هذين التوأمين منذ أحقاب حتى صهرا في بوتقة تاريخيّة؛ فإنّ المنظور العربي لا يزال يتصارع وإياهما. لذلك كانت القضية أشدّ ملابسة بالعرب في تحسّسهم سبل المناهج المستحدثة وأبعد تعلّقا بمشاغل اتصالهم بغيرهم أو

انفصالهم عنه"[3]، وفي السياق نفسه نذكر قولا مهمّا للأستاذ عماد الدين خليل: "هناك مساحة واسعة من القلق والغموض بصدد الموقف من ثنائيّة الأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة التي تبدو في أكثر صيغها جدّة. فيما اصطلح عليه بتيار الحداثة وتأتي في هذا السياق معضلة التعامل مع المعطى الغربي بشكل عام..وتأخذ هذه الإشكالية صيغا شتى من بينها على سبيل المثال ذلك الاعتقاد الخاطئ السائد لدى العديد من الأدباء..بأنّ احترام التراث يوجب رفض الحداثة والتنكر لها. أو أنّ قبول بعض حلقات الحداثة يعني بالضرورة التنكّر للتراث، ولقد ثار جدل كثير حول هذه المسألة التي بنيت على فرض خاطئ، فإنّ أحد القطبين لا ينفي الآخر بالكلّيّة، بل يمكن أن يجد فرصته للتحقّق جنبا إلى جنب"[4].

وبقول آخر نشخّص الحداثه على أنّها: "حركة دائمة باتجاه المستقبل، تنبثق عن ماض مضيء لذلك يكون الكلام على ما بعد الحداثة مرفوضا، فالحداثة ليست لحظة زمنية محدّدة إنّها الجدّة التي لا تعرف البلى، وهي إبداع لا تخلّق فيه قديم من حيث الزمن محدث متجدّد من حيث الجوهر والمعنى. فالحداثة لا تعبر على مرحلة آنيّة، وإنّما هي حركة تأسيس واستباق قوامها التساؤل والكشف، إنّها معادلة إبداعية بين الثابت والمتغيّر أي بين الزمني والوقتي، فهي تسعى دائما إلى صقل الموروث لتفرز الجوهري منه، فترفعه إلى الزماني بعد أن تزيح كلّ ما هو وقتي لأنّه متغير ومرحلي"[5].

وبحسب القارئين لأوضاع اللّغة العربيّة فإنّ بوادر الافتراق والتلاقي في الفكر اللّسانيالعربي الحديث كانت من بواكير الحركات اللّغويّة في الوطن العربي. فقد اعتبر كل من'رافع رفاعة الطهطاوي' و'فارس الشدياق' و'جورجي زيدان' من الرواد الأوائل الذي درسوا المناهج الغربيّة واعتنقوا مبادئها وظهر في كتبهم ما يدل على توجههم الفكري الجديد؛ فقد كان الطهطاوي متوغلا في دراسة اللّغات الغربيّة، وخصّ قسما كبيرا فيها للّغة الفرنسية، وحذا حذوه 'جورجي زيدان' في

كتابه 'الفلسفة اللّغويّة والألفاظ العربيّة'؛ فهؤلاء حاولوا أن ينقلوا آراء اللّغويين الأوروبيين في نظرتهم لطبيعة اللّغة ووظيفتها وطرق تحليلها، وبحثوا على وجه التقليد في كيفية الاستفادة من محتويات المناهج والنّظريات الغربيّة. ويمكن رصد موقف أنصار المناهج الغربيّة في ما يلي:

1-نظرهم للحضارة العربيّة اللّسانيّة بأنّها تفتقر إلى مقوّمات التفوّق، ويجب إعادة النّظر في شاكلتهاونظمها القديمة.

2-رأوا أنّ إنجازات اللّغويين القدامى اقتصرت على دراسة نظام اللّغة لذاتهافقط بمعنى أنّ اللّغة العربيّة منغلقة في أبحاثها حول نفسها ولغة معزولة حسب رأيهم.

3-انتَبَهوا إلى خصائص وميزات نظريّة ومنهجية في اللّسانيّات الغربيّة واستحسنوها على سبيل التمثيل والتوظيف في اللّسانيات العربيّة.

والحقيقة أنّ التقليد له أوجه متعدّدة ومختلفة لا يمكن وضعها أو حصرها في كَنَفٍ واحد فنقدم على سبيل الشرح والتوضيح عموم التوّجهات التقليدية:

أ-اتجاه هدفه الرغبة في إثراء الدّراسات اللّغويّة العربيّة بأفكار ورؤى في ظنهم مفيدة كأعمال 'أحمد متوكل' الذي اعتنق اللّسانيّات التّداوليّة والوظيفية وراح يؤسس لعلم التّداوليّة العربيّة والوظيفية العربيّة، ونجد أيضا 'طه عبد الرّحمان' فيلسوف اللّغة العربيّة الذي أراد أن يمنح للّغةوجها وصفيا علميّا دقيقا مفاده أنّ كل اللّغات تدرس انطلاقا من بواعثها الفكريّة الأصيلة مع متابعتها بما تقتضيه الحضارة اللّسانيّة العالميّة.

ب-اتجاه تقليدي أبعد كلّيا وصَال الارتباط بين التراث القديم والواقع اللّغوي الحديث وتمثّل هذا الاتجاه في رفضه لمعطيات اللّغة العربيّة القديمة، ولم يبق منها إلا المادة اللّغويّة للدراسة فقد راح أنصاره يُلِمُّون بالمناهج الغربيّة تنظيرا وتطبيقا وأغلب هؤلاء كانوا من المستغربين الذين عاشوا في أحضان الحضارة الغربيّة

فكوّنوا نوادي فكرية بالمهجر همّهم فيها تناول مفاهيم حضارة الأمة الغربيّة وأمسوا يعزفون على مقاماتها منهم على سبيل الحصر والتمثيل: نادي الرابطة القلمية وهو تجمع أدبي عربي تكوّن وأسس في المهجر مهتم بالمذاهب الغربيّة مادة ومنهجا دون أي تمحيص أو تخصيص فكان منهم شعراء وأدباء ومفكري لغة على نحو: إليا أبي ماضي وخليل جبران وهلمّ جرّا. والنتيجة أن التقليد بحسب المتتبعين والمتخصّصين باتت تفرضه عوامل أخرى؛ كالتوجه السياسي والتبعية الاقتصادية والفكريّة، ولا ربّما صدقت مقولة 'ابن خلدون' (المغلوب مولع بإتباع الغالب) وأضحى التقليد مفهوما تُحْمّل مفاهيمه على كل توجّه نحو غير العرب. وإن كان هذا الاعتبار برأي المتخصّصين مبالغ فيه؛ وبات كل من سلك المَنْهَج الوصفي أو البنيوي أو غيره من المناهج يُتهم في ولائه وفكره وهذا حكم مطلق لا يصح فالنماذج مختلفة ومتعدّدة تتعلق بأبحاث لغويّة تثبت جدارة هذه الطرق الحديثة في الدّراسات اللّغويّة العربيّة الحديثة والمعاصرة والتجارب في هذا المنوال كثيرة على نحو تجربة 'تمّام حسّان' وتجربة 'كمال بشر' و'محمود السعران' و'أحمد المتوكل' والقافلة طويلة؛ فقد لاحظنا على سبيل البيان أن تمّام حسّان "اهتم بالمَنْهَج الوصفي وسعى جاهدا لتوظيفه في شرح قواعد اللّغة العربيّة"[6]، وكان مراده من ذلك استبيان أهميّة معيار الوصف في تدريس وإيصال قواعد اللّغة النّحويّة في أنجع السبل وأيسرها ورآه مناسبا للنّحو العربيّ؛ باعتبار أن النّحاة في وضعهم لقواعد النّحو كانوا يتبنّون طرقا محدودة على نحو القياس والمنطق. وهذا لا يناسب التّوجّه النّحوي الجديد في الدّرس اللّغوي العربي، وقد أفضى تمّام حسّان تجربته بوضوح في عمله المسمّى 'اللّغة العربيّة معناها ومبناها'.

لا يقف أصحاب التّجديد كمتفرّج لما يحصل في السّاحة اللّغويّة العربيّة في ظل غزو ورواج اللّسانيّات الغربيّة في الفكر اللّساني العربي، فقد جمّعوا قواهم الفكريّة والعلميّة واستعدوا لخوض غمار معركة اشتدّ نِزالها في ضوء التنافس والانقسام بل

راحوا يتبنّون موقف الاستطلاع على منهاج الغير وتتبع توجهاتهم الفكريّة واستنطاق أفكارهم المَنْهَجية عسى ذلك بحسب رأيهم أن يوضّح النتائج في حالة إذا ما طبّقوها على مكنونات اللّغة العربيّة. فهم يؤمنون بالقدرة الوجودية للّغة العربيّة واتساع كنوزها المعرفية، ولهذا نجد أنّ التجديديين يتبنّون موقفا واضحا من دراسة المناهج اللّسانيّة الغربيّة وهو:

أولا: اللّغة العربيّة قادرة على التّواصل مع كل المناهج الأجنبية، وتلقي كل مستجدات الحضارة اللّسانيّة العالمية الحديثة والمعاصرة وذلك وفق حيز الخصوصية الذاتية.

ثانيا: كل اللّغات تأثّر وتتأثّر؛ فمعاجم اللّغة العربيّة القديمة كلسان العرب مثلا وغيره اشتمل على ألفاظ فارسيّة وغيرها. وهذا ما يسمّيه علماء اللّغة بالدّخيل. واللّغة العربيّة هي الأخرى قامت على إثرها لغات حيّة أخرى؛ فمثلا اللّغة الفارسية والتركية تكاد المفردات العربيّة تشكّل النّصف من مفرداتها المستعملة؛ فهذا ينفي ضمنيا تهمة انغلاق اللّغة العربيّة حول نفسها.

ثالثا: اللّغة العربيّة لغة ثريّة من حيث المصطلحات والمفردات وهذا ما يلغي فكرة شحّ المصطلحات ومن ميزات اللّغة العربيّة التي تتفرد بها عن غيرها هي سمة (الاشتقاق) وهي طريقة كفيلة بتطوير الثّروة المصطلحيّة للّغة العربيّة.

وعلى صعيد التّجديد هناك أعمال لغويّة في هذا الجانب تشكّلت عبر محطّات زمنيّة مختلفة، وقد لا يسعنا المجال لذكرها إلا أنّنا ننقل هنا تجربة الأستاذ 'عبد الرّحمان الحاج صالح' اللّغوي الجزائري؛ فقد اعْتُبر رمز مهمّ من رموز التّجديد الإصلاحي اللّغوي في المغرب العربي إلى جانب الأستاذ عبد السّلام المسدّي التّونسي، والأستاذ عبد القادر الفاسي الفهري المغربي. فقد أفضى الأستاذ 'الحاج صالح' فكرته التّجديدية في عالم البرمجة اللّغويّة؛ فيعدّ صاحب مشروع النّظريّة اللّسانيّة الخليليّة الحديثة المستوحاة من الفكر اللّغوي عند 'خليل بن أحمد

الفراهيدي'. فقد سعى إلى طرح رؤية لغويّة علميّة مقنّنة تهدف إلى مراجعة تجديديّة عامة لنظام اللّغة العربيّة، بحيث تستند هذه المراجعة إلى سندان التراث اللّغوي العربي أي فحص التراث اللّغوي واكتشافه والخلوص إلى ما يؤهّل اللّغة العربيّة للاستعمال الذي يمنحها ثوبا عصريا قادرا على مواكبة أي تطوّر حاصل في عالم اللّغة المعاصر؛ ونقف هنا على أهم روافد التجديد التي دعا إليها 'عبد الرحمان الحاج صالح' وغيره الذين رسموا الطريقة المثلى في 'تجديد اللّغة العربيّة' من وصال التراث وإنجازات علوم العصر:

أ-التأسيس للمعجميّة العربيّة الحديثة: ويكون ذلك وفق منوال عربي يراعى الطرق العصرية في التأليف، وهذا نمط أساسي للتجديد اللّغوي ويتوقّف على الإجراءات التالية:

1-البحث في التراث المعجمي القديم وإجراء فحص لجميع المفردات اللّغويّة العربيّة.

2-الاستعانة بالمعاجم اللّغوية العربيّة التراثية مادة ومنهجا كمعجم 'العين للفراهيدي' مثلا لاستخلاص فوائد لغويّة جمّةً يعتمد عنها في الوقت الراهن.

3-دعم المشاريع القاموسيّة فهي السّند الحقيقي للبعث اللّغوي العربي المعاصر على نحو مشروع الذخيرة العربيّة ويجب أن يتوافق البناء المعجمي هنا مع"الاستعمال الحقيقي للّغة"[7].

ب-تعليميّة اللّغة العربيّة: باعتبار أنّ اللّسانيّات التعليميّة نمط عصريّ مفيد يبعث باللّغة العربيّة إلى واقع لغوي تعليمي مجسّد يقف عند الحدود الآتية:

1-البحث في التّراث النّحوي العربي بمنهج علمي عصري وانتقاء (المناسب) من اللّغة وفق ما تمليه (الضرورة العصرية).

2-إنشاء قواعد نحويّة تعليميّة ترمي إلى "تمكين المتعلّم من إدراك الظواهر اللّغويّة المطردة الوجود الناتجة عن تركيب الجملة العربيّة، والوعي بضوابطها"[8] وهذا يدعم جوهر اللّغة العربيّة استنادا إلى تراثها العريق والنّفيس.

3-إقامة الدّورات التّعليمية والعلميّة والملتقيات التي تُناقش فيها أهمَّ المستجدات في النّحو التّعليمي واللّسانيّات التعليميّة بصفة عامة.

ج-برامج اللّغة الحديثة (اللّسانيّات الحاسوبية): دعا رواد التجديد إلى الاهتمام بالآلة العصرية؛ كون ذلك من وسائل تحديث اللّغة العربيّة وتطويرها؛ فالحاسب الآلي في هذا العصر هو "الأداة الأكثر فعالية للاتصال من أجل تيسير العلوم وسهولة الأداء"[9]. وهذا ما ترمي إليه رؤية الأستاذ عبد الرّحمان الحاج صالح الذي يعرّف اللّسانيّات الحاسوبية بأنّها توظيف الحاسوب عن طريق برمجة خاصة خدمة للّغة.

فالتجديديون يريدون بعث اللّغة العربيّة من جديد انطلاقا من تراثها العريق والبحث فيه لانتقاء المناسب والملائم الذي تكون له القدرة على التجاوب مع واقع لغويّ عالمي متداخل في جميع المجالات.

ونجد نصوصا وأقوالا في هذا الصدد تناسب ما ذهبنا إليه فها هو عبد العزيز حمودة يقول: "وأنا أرفض رفضا قاطعا أن أظل علامة ثقافية هائمة تسبح حيث يتقاذفها التيار ويطلب منها أن تستقل في نهاية المطاف فوق شاطئ دوسوسيروستراوشوياكبسون وبارت ودريدا، بل حتى هوسيرل وهايدجر، شطآن العقل العربي شطآن الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن طباطبا العلوي وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني قريبة أقرب مما يتصور الكثيرون من العقل والقلب!"[10]، فهو يرفض كل الاتهامات الموجهة للتراث العربي ويدعو إلى عدم الانكباب وراء البعثات اللّغوية الغربية. وهذا ما لمحناه من عباراته في نصّه المقدّم. إلا أنّه وقف مستدركا لبعض الأمور الحاصلة في عموم الدراسات اللّغوية

العربية وهذا ما نستوحيه من كلامه أيضا: "نحن فعلا بحاجة إلى حداثة حقيقية تهزّ الجمود وتدمر التخلّف وتحقق الاستنارة؛ لكنّها يجب أن تكون حداثتنا نحن، وليس نسخة شائهة من الحداثة الغربية"[11]. وفي السياق نفسه نقدّم رأيا آخر يصف التراث بصفه الجدارة والقدرة حيث تقول الأستاذة أمينة طيبي: "إنّ المبحر في تراثنا اللّغوي ليقف على بعض الأمور التي يذهل أمامها باحث تزاحمت عليه كلّ أنواع الآلات؛ في حين لم يتوفر لديهم إلا حسّ مرهف وذكاء وقّاد وقدرة هائلة على التذوق"[12].

ونقدّم قول عبد السّلام المسدّي كردّ صريح على الأفكار والمناهج التي توحي بالتأثر العميق لأنصار التّقليد والذين شنوا هجوما واسعا على مناهج اللّغة العربية: "إنّ أهل الغرب لو انتبهوا إلى نظريّة العرب في اللّغويّات العامة عند نقلهم لعلومهم فجر النّهضة؛ لكانت اللّسانيات المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم، بل لعلّها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلاّ بعد أمدّ"[13].

ومن المؤكّد أنّ العرب أسهموا إسهاما كبيرا في عالم اللّغة، وكانت لهم براعة الاكتشاف في عدّة جوانب علميّة معرفيّة مختلفة وتأيدا لهذا يبين الأستاذ عبد المجيد دياب ذلك بقوله: "وقد سَبق العلماءُ العربُ إلى كثير من النظريّات العلميّة التي تنسب في الوقت الحاضر إلى علماء النهضة الأوروبيّة دون الإشارة إلى هؤلاء الذين تكلّموا في التطوّر قبل داروين وفي الجاذبية قبل نيوتن، وفي انكسار الضوء قبل ديكارت، وأعمال ابن الهيثم وابن مسكويه وابن النّفيس والرازي وغيرهم كثير تشهد بالفضل -والأسبقية المعرفية-"[14]. ونبقى دائما مع الآراء المعقّبة على تفشّي الفكر اللّساني الغربي منهجا ومادة في اللّسانيّات العربيّة، فنجد يوسف زيدان رادا على إنكار مقدرات التراث: "لا يستطيع أي جاحد أن ينكر إسهامات العرب المسلمين في تاريخ العلم الإنساني، فهي إسهامات متعدّدة النواحي متنوعة الأشكال لا تزال آثارها باقية"[15].

والحقيقة أنّ المجال لا يسعنا أن نحيط بكل ما يجول ويدول في باب التقليد والتجديد. وربما قد اكتفينا بوصف محدود للاستظهار والتفسير، وهذا الموضوع يستحق التعمّق في أبحاث مخصّصة معمّقة.

ويمكننا القول: إنّ التجديد والتقليد نمطان حضاريان يواكبان جميع التطوّرات الإنسانيةقديما وحديثا فلا يمكن أن تكون اللّغة في منأى من هذا الحراك الحضاري القديم. والنتيجة أنّ أنصار التجديد والتقليد سعى كل منهما إلى إبداء رأيه وتصوره كيف تكون اللّغة وكيف تستعمل؟. والهدف العام كلّه هو: النّهوض باللّغة العربيّة.

ونلفت أنظار اتجاه الأصالة بأنّ الضرورة تلزم: "دارسي اللّغة التنقيب عن هذا التراث واستخراج ما حواه من مكنوز لغوي. سواء أكان ذلك التنقيب في كتب اللّغة المتخصّصة أم غير المتخصّصة منها، حتّى يتم الكشف عن علاقة اللّغة العربيّة بالعلوم الأخرى ومدى تأثيرها فيها وتأثرها بها، ولاسيّما أنّ اللّغة ظاهرة إنسانيّة كبقية الظواهر خاضعة لمبدأ التأثير والتأثر الذي يتضح جليّا عند مطالعة أمّهات الكتب"[16].

كما أنّنا نبيّن لأصحاب الحداثة والتقليد أنّ كلّ: "معطيات علم اللّغة كما طوّره دوسوسير لم تكن فتحا جديدا، وكان يجب ألاّ تكون كذلك بالنسبة للمثقف العربي لو أنّه في حماسة للتحديث وانبهاره بمنجزات العقل الغربي لم يتجاهل تراثه العربي، وقد أثبتنا حتى الآن أنّ القول بأنّ اللّغة نظام أو نسق علامات تربطها شبكة العلاقات من -التعاقبية- والاستبدالية أمر عَرِفَهُ العربيّ وقتله بحثا وجدلا لِما يقربُ من خمسة قرون على الأقلّ وأنّنا فيما ناقشناه من نظريّة اللّغة العربيّة حتى الآن كنّا نستطيع تطوير المفاهيم التراثية - لو أردنا- مستخدمين مصطلحات عربيّة أصيلة"[17].

وننهي هذه الوقفة الفكرية المتعلّقة بتجاذب اتجاه المعاصرة والأصالة أو صراع التقليد والتجديد بذكر أقوال لا ربّما تكون بمثابة الرّكيزة الوسطية التي تلقي الضوء

على الطريقين معًا وتشكّل بذلك الحلّ الأنجم لفك الغموض وطرح المناسب في واقع تترجّاه الأحداث العلميّة من أن يكون ذو فاعلية ملائمة لما يتوافق مع التّطور السريع والمتنامي داخل حظيرة العلوم الإنسانية المختلفة.

يقول الأستاذ محمّد بركات حمدي أبو علي في كتابه 'كيف نقرأ تراثنا البلاغي': "ونحن إذ نعيد قراءة تراثنا..نؤمن بأنّ أوّل التجديد قتل القديم بحثا وأنّ عكوفنا على التراث قراءة وتمحيصا كفيل بأن يحصّن أبناءنا ضدّ تيار التغريب الذي يتربّص بنا، والمشروع لا يقف عند حدود هذه الدّراسات إنّما هي صيحة ونداء للقادرين من الباحثين أن يدرسوا تراثنا بألوانه وفنونه من خلال طرائق الدّرس الحديث تربويّا ونفسيّا واجتماعيّا وحضاريّا وأدبيّا ولغويّا وألسنيّا، وما شاكل ذلك من نظريّة المعرفة التي تعين على تجليته وإعلانه بطريقة مقنعة وأسلوب واضح هذه شهادة في كيفيّة قراءة التراث؛ فيأخذ منه النافع ويترك التفسير للعالم لا للجاهل بعد أن يطمأن صاحبه إلى قوته ومصداقيته وهذا لا بد لقراءة تراثنا..وأخذ الحكم من أصحاب الاختصاص"[18].

ونزيد من وضوح الكلام بشرحه؛ فصاحب النّص وضع منهجيّة محدّدة وفق ما تقتضيه الضرورة المعرفية والثوابت الأصولية بحيث يقف الدارس المتخصّص في عموم الدّراسات المختلفة بما فيها اللّغويّة على الشّاكلة التاليّة:

1-الاطلاع على مكنوز التّراث وفق مبدأ القراءة الانتقائية التي تراعي قاعدة المناسبة والملائمة ويكون ذلك أيضا وفق التدقيق الاختياري الذي بموجبه يتم الحفاظ على الطابع الأوّل للموروث المعرفيّ.

2-الاعتماد على جميع المناهج المعرفيّة الحديثة التي لا تستثني دراسة المادة المحدّدة من واقعها النّفسي والاجتماعي وانتمائها الحضاري.

3-دعوة أصحاب الاختصاص للإشراف على هذه الأعمال تقيّدا بمبدأ المسؤولية والقدرة المعلوماتية التي تحيل بدورها إلى نتائج تتوافق مع الفرضيّات العلميّة التي يقدّمها المختصون ضمن المجال.

وبهذه الطريقة تكون قضايا التّجديد والتّقليد العالقة قد وُجد لها المخرج المناسب بما يخدم وقائع اللّغة العربيّة ضمن حيزها الحضاري والعصري.

ونستشهد هنا بهذا القول الملائم لما أوردناه: "الأصالة والعصرية قد تخلصتا..من طابع التنافر الذي تصنعه ثنائية الماضي والحاضر، واكتسبتا بالنتيجة طابع التفاعل الجدلي -فبات التقليد والتجديد- وجهان لمسألة واحدة، هي مسألة التمكين ومقتضياتها في مستقبل تقدّمي متقدّم"[19].

ولهذا يقسّم الباحثون في حقول التراث اللّغوي التّراث إلى ثلاثة أقسام:

أ-التّراث الفاعل: وهو الذي يمثّل الوجهة العلميّة المعرفيّة في حقول اللّغة المختلفة والتي تتميّز بالجديّة والقدرة على مواكبة كافة النّهضات المعرفية الحاصلة في جميع المراحل التي تمرّ بها الحضارة اللّغويّة.

ب-التّراث الخامل: وهو التّراث ذو الفعّاليّة المحدودة والذي توقّف على المسايرة والإنتاجية في مراحل متقدّمة من الاستعمال اللّغوي وبالتّالي فهو يحتاج إلى البعث والإحياء للنهوض به وفق مقتضيات العصرنة.

ج-التّراث القاتل (المعدوم): وهو نوع يستحيل التنقيب فيه والبثّ منه على اعتبار أنّ منتسبي اللّغة لا يملكون المؤهلات الذاتيّة (المعرفيّة) لإعادة بعثه وإحيائه من جديد.

والحقيقة تقتضي عوامل أساسيّة للبثّ والإحياء وصبغ الموروث بطابع الحداثة ويكون ذلك انطلاقا من:

1-"الفهم العميق للتراث والمعرفة الواعية بمكوّناته.

2-القدرة على استشراف المستقبل ومتابعة احتمالاته وإمكاناته اللانهائية وتحديّاته"[20].

وفي هذا الصدد نجد كتاب 'سليمان جبران' الصادر عن مجمع اللّغة العربيّة 'حيفا' عام 2009مبعنوان: (التجديد والتقليد في اللّغة العربيّة المعاصرة) من أروع الكتب وأعلاها شأنا التي تناولت هذا الإشكال السائد. لأنّ السّاحة اللّغويّة العربيّة انقسمت إلى فريقين: فريق إصلاحي بفكر أجنبي مصدره البنيويّة السويسرية أو التّوليديّة الأمريكية على سبيل المثال، وفريق إصلاحي بفكر عربي محافظ ينبع من محاور اللّغة الأساسية كالنّحوية من مدرسة سيبويه، والصوتيّة من مدرسة الفراهيدي، والبلاغية من مدرسة الجرجاني. فسليمان جبران قدّم شرحا مهمّا أراد به أن يقف على الاتجاهينالاثنين بالتوازي المعتدل الذي يمثل حسب رأيه تشخيصا للواقع اللّغوي العربي وبيان طرق الاستفادة من الفريقين. ويتمثّل رأيه من خلال كتابه 'التجديد والتقليد' وهو وفق ما يلي:

أ-صرّح في كتابه بعبارة مهمّة واصفا بها اللّغة العربيّة وموجهة إلى الطرفيين مفادها أنّ 'اللّغة العربيّة ليست عاجزة وليست معجزة' فالشطر الأول من العبارة /ليست عاجزة/ رسالة واضحة إلى دعاة التّقليد والشطر الثاني من العبارة /ليست معجزة/ رسالة ثانية توضيحية إلى دعاة التجديد.

ب-وطرح أيضا فكرة مفادها كيف نستفيد من التجديد والتقليد في ظل الصراع القائم؟. وحاول فيها تبين كيفية التصحيح وكيفية الإفادة.

كما نجد قولا مهّما مشابها لما ذهب إليه جبران وهو قول الأستاذ كمال بشر في كتابه: (التفكير اللّغوي بين القديم والجديد) عارضا موقفه حول تجاذب التجديد والتقليد معرّجا على حقيقة هذه النازلة الفكريّة والمَنْهَجية بقوله: "القديم والحديث لا يعني بحال انفصال حلقّات الزمن بعضها عن بعض إذ إن هذه الحلقات متداخلة ومتشابكة إلى حدّ يصعب على الإنسان أن ينتزع حلقة معيّنة منها ويفردها وحده

بالنّظر والتأمّل دون إطلالة من نوع ما على السّابقات واللاحقات من أخواتها وإذا جاز لنا هذا الفصل أحيانا. فإنّما هو على ضرب من المجاز يتمثل في إرادة التركيز على حلقة دون أخرى لاكتشاف ما مسّها من ألوان جديدة لجدّة الحياة نفسها وقد يكون الفصل -وهو قليل- لوقوع أحداث حياتية بارزة أو وجود ظواهر إنسانيّة في الفكر والسلوك امتازت بها فترة دون أخرى، وأمكن وسمها أو تحديد أبعادها نسبيا وفقا لخصوصياتها"[21].

وفي الأخير: إنّ التجديد والتقليد عنصران متلازمان في كل المراحل الزّمنيّة وفي جميع المعارف العلميّة؛والفصل بينهما من نوازع المستحيل، بل لا يصح بتاتا فقد لزمت هذه المبادئ كل أنواع العلوم الإنسانية والطبيعية وحتى علوم التقنية الحضارية؛ فعلى سبيل المثال نجد معارف الطب تتجدد بحسب الظروف الصحيّة وقد يأتي اكتشاف علمي ليثبت نجاعة دواء قديم، وقد يأتي اكتشاف آخر ليقلل من فاعلية دواء جديد، وقد تتضارب النّظريات الطبيّة حول دواء معين. والحاصل من هذا أنّ التّجديد والتّقليد من المفاهيم العقليّة التي يفرزها الفكر الإنساني تحت تأثير عوامل مختلفة كظروف البيئة الطبيعية أو الحاضنة الاجتماعيّة أو الانتماءات الدينيّة أو الأحوال النفسيّة والشخصيّة أو الظروف السياسيّة والاقتصاديّةوخلاصة ما قدّمناه أنّه يجب -بل يفترض– على اللّغويين العرب من أهل التخصّص والمجال توحيد وإخلاص جهودهم وتكثيف أبحاثهم وتدقيق أفكارهم، والسعي مليًّا لإرساء منهج ومرجع يحافظ على (خصوصيّة اللّسان العربي) ويراعي نقاط التقدّم الحضاري العالميّ التي تقوم عليها العلوم اللّغويّةالحديثة.

***الهوامش:**

(1)-سالم علوي، وقائع لغوية وأنظار نحويّة، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2000م، ص13.

(2)-إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة ط2، ج1، باب الجيم، د-ت ص147.

(3)-عبد السّلام المسدّي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربيّة للكتاب،تونس، ط2، 1982م ص17.

(4)-عماد الدين خليل، الثنائيات توافق أم تضاد، مجلّة الأدب الإسلامي، مؤسسة الرسالة بيروت، عدد 25، السنة 1421ه،المجلّد السابع، ص8.

(5)-مُها خير بك ناصر، الأدب العربي بين الأصالة والمعاصرة، مجلة التراث العربي، دمشقعدد 96، 25 كانون الأول: 2004م.

(6)-ينظر،تمّام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، الدّار البيضاء، المغرب 1994م، ص7.

(7)-عبد الرّحمان الحاج صالح، أنواع المعاجم الحديثة ومنهج وضعها، مجلّة اللّغة العربيّة دمشق، سوريا، المجلد 78، الجزء 3، ص673.

(8)-علي أبو المكارم، تعليم النّحو العربي، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع،القاهرة، ط1 2007م، ص21.

(9)-عمر مكداشي، البرمجة باللّغة العربيّة، دار الراتب الجامعية، بيروت، 1987م، ص5.

(10)-عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظريّة نقدية عربيّة، سلسلة عالم المعرفة الكويت، العدد 272، ص14.

(11)-عبد العزيز حمودة، المرايا المحدّبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة الكويت، العدد 232، ص9.

(12)-أمينة طيبي، الدراسة فوق التشكيلية عند الفلاسفة المسلمين، مجلة التراث العربي، دمشق العدّد 98، 25 حزيران 2005م.

(13)- التفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط3، 2009م، ص23.

(14)-عبد المجيد دياب، تحقيق التراث منهجه وتطوره، دار المعارف القاهرة، ط2، 1993م ص13.

(15)-ينظر، يوسف زيدان، أزمة التفكير العلمي العربي مقال منشور بالموقع الإلكتروني للتراث والمخطوطات: http:www.ziedan.com/research/kuite.asp

(16)-مازن الوعر، التّفكير اللّغوي عند الجغرافيين والرّحالة العرب في ضوء اللّسانيّات الجغرافيّة المعاصرة، مجلّة التراث العربي، عدد 104، 06 كانون الأول: 2006م.

(17)-عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظريّة نقديّة عربية، ص257.

(18)-محمّد بركات حميدي أبو علي، كيف نقرأ تراثنا البلاغي، دار وائل، عمّان، الأردن ، ط1 1999م، ص7.

(19)-سهيل الحبيب، وصل التراث بالمعاصرة، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط1 1998م، ص132.

(20)-عبد القادر برجي، القضايا اللّسانيّة في كتاب الامتناع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي مذكّرة ماجستير، جامعة ورقلة، الجزائر السنة الجامعية: 2009/2008م، ص20.

(21)-كمال بشر، التفكير اللّغوي بين القديم والحديث، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة 2005م، ص5.